المقتطف

الجزء الرابع من المجلد الثالث والثلاثين

١ ابريل (نيسان) سنة ١٩٠٨ — الموافق ٢٩ صفر سنة ١٣٢٦

الثورات الثلاث

حدث في هذه البلاد في الربع الاخير من القرن التاسع عشر ثلاث ثورات كبيرة قام بها ثلاثة من الزعماء الاول دينيّة ومقرّها بلاد الشام في ضواحي مدينة بيروت والثانية سياسية ومقرها القطر المصري والثالثة دينيّة سياسيّة ومقرها بلاد السودان . وهاك وصف هذه الثورات الثلاث بالايجاز التام

الاولى ثورة الشام

في اواسط سنة ١٨٧٩ قام رجل ضعيف الحال كثير الادواء في قرية الشويفات احدى قرى جبل لبنان المجاورة لمدينة بيروت وادّعى ان ملاكاً اوهاناً جاءهُ في ظلمة الليل واوحى اليهِ انهُ سيشفى من امراضهِ وادوائهِ الكثيرة اذا فعل ما امرهُ بهِ . وكانت اعمى احدب اعسم تأتيهِ نوبات الصرع فتعدمهُ الحركة ففعل كما أُمر فتدرّج في الشفاء على النحو الذي قال ان الملاك عيّنهُ لهُ فكان لشفائهِ ثورة عظيمة في النفوس

وسبب تلك الثورة كان افعل جدًّا من سبب الثورتين التاليتين ولكن زعيمها لم يكن واسع الحيلة ولا اتفق ان نصرهُ اناس كبار المطامع عزّزوا دعوتهُ فلم تلبث ثورتهُ طويلاً حتى خبت ونسي اسمهُ . وهو الرجل الذي جاءهُ وصفهُ في الجزء الماضي من المقتطف في باب المراسلة وكان يلقب بقديس الشويفات

ولقد يسهل على المرء ان يقف الآن وينظر الى ذلك الحادث بعين الازدراء او قلة الاكتراث اما في تلك السنة سنة ١٨٧٩ فلم يكن احد يجسر ان يقول كلمة تدلُّ على ارتيابهِ في صحّة دعوى الرجل حتى ان الاطباء اذعنوا لها حينئذٍ ولزموا الصمت لشدّة التيّار الذي كان ثائرًا في وجوههم . والرجل من طائفة الروم الارثوذكس وكانت المغايرة والمناظرة بين

الطوائف المسيحية على اشدها ولكن الموارنة والكاثوليك والارمن والدروز تستانت بل والمسلمون والدروز والمتاولة — كل الطوائف المسيحية والاسلامية التي في بلاد الشام وما جاورها وقفت وقفة الدهشة وهي تقول بلسان واحد هذه يد الله

واي حادث من حوادث التاريخ واي رجل من ابناء الزمان اصدق من اعمى مفلوج كسيح اعسم يقول لك جاءني ملاك في ظلمة الليل فقال لي افعل كذا وكذا فتشفى من ادوائك كلها شفاء متدرجاً تفعل وشفي وشاهده الاطباء والوف من الناس في غضون هذه المدة وشهدوا كلهم انهُ كان مصاباً بهذه الادواء وانهُ شفي منها رويداً رويداً وتمَّ شفاؤهُ في اليوم الذي حدَّدهُ لهُ الملاك او الهاتف . وقد أثمرت الجرائد حينئذٍ اتوالهُ الاولى التي قالها في حينها ثم جعلت تنشر في طول البلاد وعرضها كيفية تشرُّجر في الشفاء والرجل قائم في سهل فسيح على شاطئ البحر والوف من الناس يزورونهُ كل يوم ويرون تقدُّمهُ في الشفاء والمرضى والزمنى يأتونهُ يوماً بعد يوم من الاقطار القريبة والبعيدة ثم يعودون حامدين اللهَ شفاءهم من امراضهم وادوائهم . ولا شبهة في ان بعضهم كانوا يشفون حقيقة ولاسيما المصابون منهم بامراض عصبية او بعلل وهمية ثم يعودون الى ذويهم ويخبرون بما شاهدوا او بما رسخ في اذهانهم . ولا يخفى ان الاخبار تتعاظم بالبعد عن مصدرها ولاسيما اذا كانت مما يطلق بالرهم في بلاد تسلطت الاوهام عليها منذ قرون عديدة . ولذلك كنا نسمع كل يوم خبراً جديداً مدهشاً حتى صار اشد الناس تدقيقاً يصدق ما يسمع من غير بحث وينقلهُ ويبالغ فيهِ . وانتبه الناس الى كل حادثة وربطوها بالحادثة الكبرى . كانت فتاة ذاهبة مع الذاهبين لزيارة قديس الشريفات كما يقولون فوقعت عن الدابة التي كانت راكبة عليها وكسرت يدها فذاع وشاع انها كانت غير مؤمنة وانها كاشفت بذلك جارتها التي كانت سائرة الى جانبها فقالت لها جارتها ان كنتِ ذاهبة وانت غير مؤمنة فستقعين وتكسرين يدك ولم تتم الكلام حتى وقعت وكسرت يدها فقالت انها

وكان ذاك الرجل ينتصب في بركة على شاطئ البحر فيخرج منها حالاً ويوضع في فناني ويوزع في البلاد ليعتذروا عن المرضى من كل الطوائف والامم . والناس صامتون مبهوتون البسطاء منهم مصدقون واهل العلم والزكانة لا يجسرون ان ينبسوا ببنت شفة . ولقد جاهرنا في المقتطف بمقاومة الخرافات والاضاليل مهما كان اصحابها مسوغي الكلمة او مؤيدي السلطة اما قديس الشريفات فلم نجسر ان نقاومهُ جهاراً ولا تصريحاً بل اكتفينا بالتلميح وقلنا ولولا ضيق المقام وخوفنا ان يحسبنا البعض نتصدى للاعتقادات الدينية التي ليست من

بعضنا لكشفنا فضائح عما هو جارٍ الآن في تراجيديا وغيره يتعاظم يومًا فيومًا . فصبرًا الآن فسوف يكشفهُ ثمر . وبعد الثورة من شهرة الشديد فيها اقامت عليها القيامة من الاصدقاء الذين قرأوها وفهموا مغزاها . ولم يكن شفاء الرجل قد تمَّ حينئذٍ فلما تمَّ لزمنا الصمت التام لانهُ لم يكن في الامكان مقاومة تيار الرأي العام

وقد يسهل على المرء ان يقف الآن بعد مضي ثلاثين سنة ويتذكر حال الناس حينئذٍ كما قلنا سابقًا ولا يصدق انهم كانوا على هذا القشر من الاستسلام للاوهام ولكن الذين رافبوا ثورة الافكار حينئذٍ يتمثلون خطارتها . يشهدون معنا انهُ لو كان ذلك الرجل واسع الحيلة كبير المطامع او لو وُفق بمرشدين من اهل الرأي والنظر لفعل ما يشاء لان البلاد كلها كانت مستعدة لامره . اما وقد كان سليم النية حسن الطوية فخيّل لهُ انهُ يصيب في كل خاطر يخطر لهُ كما اصاب في امر شفائهِ فاشار الى اهل بلدهِ ان يحفروا على رأس تلة فيجدوا ماء فحفروا لقلة قراستهم وشدة اعتقادهم بهِ فلم يجدوا شيئًا ولم يكونوا واسعي الحيلة حتى يحفروا لسلهم ولا كان لهم مأرب بنجاح دعوتهِ ولو كانت غير صحيحة فضعف شأنهُ رويدًا رويدًا ولاسيما لانهُ لم يلقَ مقاومة تجمع الناس اليهِ وتعصبهم لهُ ولولا ذلك او لو توفي بعد شفائهِ وقبل ان يفشل في استنباط الماء لكنت ترى الالوف وعشرات الالوف يزورون قبرهُ الآن كأنهُ من كبار الاولياء

هذا وقد بيّنا كيفية شفائهِ في كلامنا على الرسالة المندرجة في الجزء الماضي فلا داعي للاعادة

الثانية ثورة مصر

يُرى في بعض الايام في متنزه الجزيرة مركبة صغيرة يجرها فرس ضئيل فيها رجل طويل القامة ضعيف الجسم شاحب الوجه يمرُّ بهِ الناس وقلَّ من يلتفت اليهِ منهم . الشيوخ والكهول لم ينسوهُ وان كانوا قد نسوا ما كان لهُ من الجاه والسطوة اما الشبان شبان هذا العصر فلم يروا ولن يروا رجلاً حاز من الشهرة ورفعة المقام ما حازهُ عرابي باشا في زمانهِ فان ذلك الشيخ الاشيب الذي يشيع عنهُ الناس الآن هو عرابي باشا الذائع الصيت صاحب الثورة العرابية التي اقامت اوربا واقعدتها واخرجت الاسد البريطاني من عرينهِ . عرابي باشا الذي خرج القطر المصري كلهُ وراءهُ وكان جلالة سلطان آل عثمان يرسل اليهِ الوفود بالياشين ووكلاء الدول الاوربية يطلبون منهُ الأمان على رعاياهم

قال لنا وجيه من وجهاء الانباط بالامس ان عمي العريضي الجاه الواسع الثروة اضطرَّ من باب المجاملة بل من باب المحافظة على دمهِ وماله ان يقدم الخيل والثياب لعرابي وجنودهِ

وكذا فعل غيرهُ وغيرهُ من وجوه الانقباط وهم كارهون لتلك الثورة خائفون من عواقبها

الانسان سريع النسيان ولكن صحف الاخبار لا تنسى وما ينشر فيها اليوم عما يحدث اليوم يبقى تاريخاً خالداً . واما نحن الآن كتاب كبير كلة نضع من الجرائد الاوربية والاميركية التي صدرت في ايام الثورة العرابية وكلها عن عرابي وافعاله فلم يكن اسم الخديوي توفيق باشا يذكر فيها مرة حتى يذكر اسم عرابي مئة مرة

كتب المستر بلنت الى المستر غلادستون رئيس الوزارة الانكليزية حينئذٍ يصف عرابي بقوله تحدثت ملياً مع عرابي واؤكد لكم انهُ رجل غير عادي فهو قوي الحجة واسع العلم واسع الاختبار عارف بامور دينهِ مثل اكبر العلماء . آراؤهُ ليست مقتبسة من آراء الاوربيين كأنها صدى لها بل هي مبتكرة مبنية على معرفة واسعة بالتاريخ وبتقاليد العرب الموروثة عن السلف حينما كانت حكومة الاسلام شورى . وهو يتصل من كل غرض شخصي وانا اصدقهُ وليس عندي اقل شبهة في ان البلاد كلها معهُ والجند كلهُ طوع امرهِ وفي قبضة يدهِ . يدّعي انهُ شريف من قريش ولهذا الامر شأن كبير في تعلق فؤاد الجند بهِ وطاعتهم لهُ . وهو يتكلم عن نفسهِ بتمام الدعة فقد قال "اني نائب عن الجيش لان الاحوال جعلتهم يثقون بي والجيش نائب عن الامة وهو حاميها وسيبقى حامياً لها الى ان تستغني عنهُ . ونحن الآن القوة الوطنية الوحيدة القائمة بين مصر وحكامها الاتراك الذين يسهل عليهم ان يعيدوا في اية لحظة كانت مظالم اسمعيل باشا اما المراقبة الاوربية فلا تكفي وحدها لمنع ذلك كلهِ ولا فيها ما يعدُّ الامة لتتولى شؤونها بنفسها حينما تبطل تلك المراقبة المالية وهذا امرٌ يعنينا نحن ولقد اعطانا الامة حق التكلم في مجلس يجمع اعيانها وغرضنا ان نمنع كل ما يجرمها ذلك الحق فنحن لا نسعى لانفسنا بل لاولادنا وللذين اعتمدوا علينا" . وقال لي في وقت آخر "اننا نحن الآن في مثل الموقف الذي كان فيهِ سيدنا عمر لما قال للذين حولهُ اذا وجدتم فيَّ عوجاً فقوموهُ فقال لهُ واحد منهم لو وجدنا فيك عوجاً لقومناهُ بسيوفنا . ونحن ابناء مصر لا نحب سفك الدماء ونرجو ان لا نسفك دم احد وحينما يدير مجلس نوابنا قادراً على الكلام ينتهي عملنا ولكننا لا نعتمد سيوفنا قبلما نبلغ تلك الغاية ولا نخشى بعون الله ان تثبت مقدرتنا على حماية حقوقنا"

هذا ما كتب بهِ المستر بلنت الى الوزير غلادستون في وصف عرابي باشا وقد نشر في مجلة القرن التاسع عشر سنة ١٨٨٢

ويظهر من كل ما كتب عن الثورة في ذلك الوقت ان الجنود كلهم كانوا في يد عرابي وهذا كان اعتقاد الخديوي نفسهِ فقد جاء في جريدة التيمس في رسالة من مصر بتاريخ ٣ ايار سنة

١٨٨٢ انهُ لما تشرف سلطان باشا والنواب بمقابلة الخديوي قال لهم انكم طلبتم حل الوزارة في شهر فبراير لا لانكم كنتم على خلاف معها بل لان الجرية اضطرتكم وقد انكرتم ذلك حينئذٍ ولكنكم اعترفتم به الآن . ثم قال لهم انهُ لا سبيل الى المصالحة الا اذا استعفى عرابي من منصبهِ

وجاء فيها بتاريخ ١٥ مايو ان قنصل فرنسا حاول اقناع مصطفى باشا فهمي بقبول رئاسة مجلس النظار فقال لهُ مصطفى باشا انهُ ان فعل ذلك فلا امان عليهِ من عرابي باشا

his life would be in danger from Arabi Pasha if he did so

ثم زار القنصلان قنصل فرنسا وقنصل انكلترا عرابي باشا وقالا لهُ انهما يحسبانهُ مسؤولاً شخصياً عن كل اضطراب يقع في القطر المصري فقال لهما انهُ يكفل النظام والامن العام ما دامت السلطة في يدهِ والاَّ فلا يكفل شيئاً . فقالا لهُ انما اتينا لتحذيرك رسمياً وليس لنا شيء آخر تقولهُ

هنا دولتان عظيمتان تتوبان عن اوربا كلها تخاطبان عرابي باشا كأنهُ الشخص الوحيد الذي في يدهِ كل امر وسلطة في القطر المصري

ونشرت التيمس رسالة من مصر تاريخها ١٦ مايو سنة ١٨٨٢ يقال فيها ان الخديوي استدعى سلطان باشا رئيس مجلس النواب وطلب منهُ ان يسمي لهُ اناساً ليعينهم نظاراً فقال لهُ سلطان باشا انهُ مستعد لخدمتهِ في كل شيء ولكن تعيين النظار ضرب من العبث ما دام عرابي هو حاكم البلاد فعلاً so long as Arabi remained practically ruler of Egypt

ويزعم البعض ان سلطان باشا كان مقاوماً لعرابي باشا ولكن الذين راقبوا الاحوال حينئذٍ كانوا يقولون غير ذلك فقد كتبت التيمس بتاريخ ١٩ مايو سنة ١٨٨٢ ان سلطان باشا صديق لعرابي وآلة سهلة بيدهِ Sultan is a friend and an instrument of Arabi Pasha.

ولكن لما جاءت البوارج الانكليزية وضربت الاسكندرية استعزَّ سلطان باشا وغيرهُ وصاروا يجسرون على مقاومة عرابي اما قبل ذلك فكانوا كلهم طوع امرهِ

وليس من غرضنا ان نذكر هنا الثورة العرابية بتفاصيلها فقد ابقينا ذلك الى مكان آخر بل ان نبين ان رجالاً قلائل من ضباط الجيش المصري نهض فنهضت البلاد معهُ وثارت في وجه خديويها ووجه سلطانها ووجه اوربا كلها فكانت الثورة العرابية المشهورة التي لم تر مصر ثورة مثلها منذ ايام الفراعنة

الثالثة ثورة السودان

الثورتان السابقتان الاولى منهما دينية صلبية ذهبت ولم تضرَّ احداً الاَّ الذين تجشموا

مشقات السفر وتحملوا فقاتلوا فجاءوا مصر بثورة من البلدان الاناضولية . والثانية حربية دموية ذهبت فيها مئات الوف من النفوس وخسرت البلاد الملايين من الاموال وانضمت الى الثورة الثالثة والثورة الثالثة دينية وسياسية فاجتمعت فيها شرور الثورتين وزادت عليها باستمرارها طويلاً

قام محمد احمد الملقب بالمهدي وهو عالم ضعيف الحال اغاظ من شيخه لانهُ اهانهُ فخرج عليهِ وجعل ينتقدهُ بجرأة قليلة النظير فذاع سيتهُ حالاً واجتمع الناس عليهِ يتحونهُ بالهدايا وهو يوزعها على الفقراء ادعاء بالزهد مع انهُ كان يطلب على الكلة والسمن على شيخهِ الذي اهانهُ . ولما رأى انهُ تارأ شيخهُ ونجح جعل يناوئ رجال الحكومة المصرية المبثوثين في السودان شاكياً من ظلمهم فزاد اشياعهُ لان الناس يميلون الى الشكوى بالطبع ويلتفون حول من يعدهم بتفريج الكرب . ولله در القائل

ان نصف الناس اعداء لمن ... ولي الاحكام هذا ان عدل

ومن الذين انضموا اليهِ عبد الله التعايشي واخوتهُ وكان عبد الله ناقماً على الحكومة المصرية لان الزبير باشا الوالي من قبلها كان قد قبض عليهِ وامر بقتلهِ ثم اطلقهُ بشفاعة بعض العلماء وكان عبد الله التعايشي داهية واسع الحيلة فقام بدعوة محمد احمد وقال انهُ هو المهدي المنتظر فانتشرت دعوتهُ في السودان انتشار النار في الهشيم لان البلاد كلها كانت ناقمة من جور حكامها . والتفت الالوف حولهُ فحارب بهم رجال الحكومة المصرية وتغلب عليهم وما زال امرهُ يتعاظم وعدد انصارهِ يتزايد الى ان استولى على بلاد السودان كلها وجعل يتهدد مصر في عقر دارها وصار لهُ مملكة مستقلة مثل اعظم ممالك افريقية

ولم يكتفِ بالانقلاب السياسي الذي احدثهُ في تلك البلاد بل احدث فيها انقلاباً دينياً لا يقل عن الانقلاب السياسي وكأنهُ انشأ فيها ديناً جديداً ورسم فرائضهُ وقواعدهُ وشعائرهُ . ولو أُعطي شيئاً من الحكمة وحسن التدبير وجرى التعايشي في خطتهِ واهتم بترقية الشؤون الزراعية والصناعية والتجارية لكانت بلاد السودان الآن مملكة مستقلة سياسياً ودينياً بل كانت اعظم شأناً من بلاد مراكش ان لم نقل من بلاد ايران

وقد اسهبنا في الكلام على قيام المهدي وخليفتهِ وسقوطهِ في المجلد العشرين من المقتطف فنكتفي الآن بهذه السطور للدلالة على ما نحن بصددهِ

هذه ثورة ثالثة حدثت في الربع الاخير من القرن التاسع عشر قام بها عالم ضعيف مستضعف وكان في الامكان ان تصير من اعظم حوادث الدهر ولكن ما كان يتيسر في العصور الغابرة لا يتيسر في هذا العصر